

القسمة في الرؤية وفي الذكورة والأنوثة ﴿إِذَا قُسِمَتْ ضِيزَى﴾: ظالمة جائرة، فإن ضاز بمعنى جار وظلم.

فإذ قد ترون أنتم ألهمتكم، فلماذا تمارون الرسول إذ يقول: رأيت ربي بقلبي، ولو أن الرؤية الممارى فيها كانت رؤية جبرئيل، انتفت الصلة بينها وبين رؤيتهم أربابهم، فالمجال هنا وهناك مجال رؤية الأرباب، دون الملائكة وأضرابهم!.

وهذه الأرباب: الأصنام الثلاثة، كانت كأن لها الزعامة بين معبوداتهم، وعلها - كما يقال - كانت تماثيل عن ملائكة ثلاث، اعتبروهم بنات الله وأخذوا يعبدون تماثيلهم، وكما توحى به ﴿أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَى﴾ إذ لا صلة لها باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، إلا إذا كانت تماثيل لها يعبدونها، إذاً فلها صلة بأسطورة أنوثة الملائكة، وكما يلح من أنوثة هذه الأصنام أيضاً.

ثم الأخرى في مناة الثالثة الأخرى، علها صفة ذم كما في أمثالها، أي: مناة الآلهة: الثالثة الذليلة المتأخرة في المعبودية، إذ كانت الأصنام طبقات كما كانوا هم طبقات طبقية عارمة في العابدين والمعبودين.

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَّتُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾ (٣٠):

إن هذه الأسماء، ليس تحتها من معاني الألوهية شيء، لا أصالة: أن تكون آلهة مستقلين، ولا وكالة أن ينزل الله بها من سلطان، فتكون آلهة موكلين، وهم لا يتبعون في هذه التسميات إلا الظن: كل وهم أسطوري لا يملك أي برهان، ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾ وهم يرفضونها إلى الهوى، وإنما تقودهم ظنونهم وما تهوى الأنفس.

أسئلة مطروحة حول:

الغزوة المعراجية المحمدية ومركبتها العجيبة

الرحلة الفضائية في نطاق العلم: في عمق الزمان والمكان:

ترى هل كانت الرحلة بالروح القدسية المحمدية دون جسم؟ كما تقولها بعض! أو جسمياً دون روح؟ كما تخرصها آخرون! أو بكلا الجسم والروح كما يقول الله: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ لِإِثْبَاتِ الْبَصِيرَةِ﴾ في الإسراء، و﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ﴾ و«صاحبكم . . هو . . فأوحى إلى عبده» كما هنا في النجم، فيا ترى أن الرسول ﷺ صاحبنا ببعضه؟ أم بروحه وجسمه؟ أو أن «عبده» هو روحه فقط أو جسمه؟ فلماذا لم يقل: بروح عبده! أو جسمه؟ وإنما ﴿بِعَبْدِهِ﴾ الشامل كليهما، أو أن البصر المنفي عنه الزيغ والطغيان في السدرة، هو بصر الروح؟ وليس إلا بصيرة! أو بصر الجسم بلا روح؟ وهو ميت لا يبصر! أم كيف رأى ربه بنور اليقين عند السدرة التي عندها الجنة، بجسم بلا روح، أو روح بلا جسم! وهي دوماً في سدرة المعرفة وقد رأى هناك من آيات ربه الكبرى ببصره وهو في جسمه كما رآه هو ببصيرته وهي قلبه، فإنما المعراج بكلا الروح والجسم.

فما يروى عن عائشة: «ما فقدت جسد رسول الله ﷺ ولكن الله أسرى بروحه»^(١) يعارض هذه الآيات من عدة جهات، وأنه ﷺ بنى بها بعد الهجرة بزمان، وكان الإسراء بمكة قبل الهجرة بزمان من المسجد الحرام، . . كلا لا ذا ولا ذاك، وإنما عرج النبي بكله، وكما كان في الأرض، أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم عرج به من

(١) الدر المشهور: أخرجه ابن إسحاق وابن جرير عن عائشة قالت: . .

الأقصى إلى أقصى السماوات وإلى سدره المنتهى وما فوقها! لو لم تقصد من الأقصى نفسها^(١).

وعلى ما يروى لم يشغل المعراج ذهاباً وإياباً ووقفة هناك إلا زهاء ثلث الليل ولنفرسه أربع ساعات، فأين البليارات البليارات من السنين الضوئية لا اجتياز قطر السماوات وأين أربع ساعات، فهل إن العلم يتحمل تصوره فضلاً عن تصديقه؟!.

أقول: المعراج، حسب المستفاد من آيات الإسراء والنجم في وجهه^(٢)، له رحلتان: الرحلة الأرضية، والرحلة الفضائية في العمق، فالأولى: هي سري النبي ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، والثانية: عروجه من المسجد الأقصى إلى أقصى الآفاق، وكما يوحى بهما أيضاً «نبؤت هيلد» في النص الانقلوسي: «وَأُرِيلَ كِسْهًا» . . . إن محمداً سوف يذهب ويطير» فذهابه سرية، وطيْرانه عروجه.

ثم لا ريب أن الرحلة الفضائية المعراجية بمقدماتها وخلفياتها، أنها من المعجزات، ورغم عجز العلم عن تحقيق عملية الإعجاز وعن تفهمها أيضاً، فمن الثابت أن المعجزة لا تنافي العلم، فقد يفسرها العلم، وقد يعجز عن تفسيرها، إلا أنه لا يحيلها، فإن الآية المعجزة ليست لتخرق وتبطل القوانين الكونية - ما وصل العلم إليها وما لم يصل - وإنما تخترق - مطلة عليها - أسبابها الخفية، ومدى تأثيراتها، وزمن الحصول على مفعولاتها، لحدّ يعجز

(١) بحار الأنوار ج ١٨ الطبعة الحديث ص ٣٣٩ من الاحتجاج للطبرسي عن علي عليه السلام قال: «لقد أسري برسول الله من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى في أقل من ثلث ليلة» أقول: لا يعني أنه وقت المعراج الأرضي فحسب، وإنما المدة التي شغلته حتى رجع إلى مكة، وقد يعني من المسجد الأقصى - وهو أقصى المساجد وأبعدا إلى المسجد الحرام - قد يعني المسجد الذي هو في سدره المنتهى، فليس الذي في القدس هو الأقصى وإنما مسجد الكوفة، وإن سمي أقصى فعلها لكونه مواجهاً للأقصى الذي في السدره.

(٢) أن يكون المسجد الأقصى هو الذي في القدس.

عنها من سوى الله، إلا من يجريها الله على يديه أو لسانه أم ماذا . . كآية تدل على أنه رسول من الله .

فالآية المعجزة ليست بلا أسباب، أو بما تقصر عن التسبب، وإنما بأسباب خفية عن العلم، أو ظاهرة له بعيدة عن القدرة غير الإلهية، أو أنها بإرادة مسبب الأسباب، دون أسباب تعودناها، فليس إذاً بإمكاننا تحليل عواملها، مهما تمكنا من تحليل كيفية وقوعها، أو إمكانيتها علمياً، وقد لا نتمكن من الحصول على الإمكانية العلمية، ولكنه ليس ليدل على عدم الإمكانية الواقعية أو العقلية .

لقد كانت الهيئة البطليموسية تحيل المعراج الجسماني لاستلزامه الخرق والالتئام، إذ كانت تعتبر الأرض مركزاً للكون، والفضاء الخارجي أفلاكاً زجاجية مركبة من طبقات تسع، سبعة منها مدارات خاصة للسيارات السبع التي تنزل داخلها كما تنزل الكرة على صفحة الزجاج، وأما الفلك الثامن فكان مسرحاً للنجوم الثوابت، بينما كان الفلك التاسع خالياً عن النجوم .

فبحساب هذه الهيئة، تكون الأفلاك التسعة على الشكلية البصلية كالزجاج: لا تقبل الخرق والالتئام .

ولقد نُسفت هذه الهيئة بأسطورتاتها منذ زمن بعيد، بالناسفات القرآنية والعلمية معاً، ثم خلفتها بعض النظريات في غزو الفضاء، إذ ما كانت تعرف سرعة أكثر من مائة ك. م في الساعة، وغزو الفضاء يتطلب - لأقل حدوده - ١١ ك. م في الثانية، حتى نسفها اختراع الأغلفة المختلفة التي يحافظ على طائرات وصواريخ تسير بسرعة ٢١ ك م في الثانية .

ثم بقيت هناك في السرعة المعراجية مشاكل تحول دون تصديقها علمياً، كمشكلة السرعة والحرارة، فالسرعة - ولا سيما الخارقة المعراجية - تخلق حرارة تناسبها، لحدّ تصبح المركبة كأنها الحرارة نفسها، وفي القمة التي لا يبقى أي عنصر كنفسه، وكذلك تصطدم بالشهب والنيازك النارية، وبنيازك



الهواء نفسها، فالمركبة المعراجية إضافة إلى تبدلها بحرارة فوق التصور، تُقصف ببليارات من قاذفات النيازك الشهابية، والهوائية، مما تقلل عن حركتها وتعرقل دون سرعتها وتفجرها في طريقها، فهذه من ناحية.

ومن جهة أخرى، فإن النظرية النسبية لآينشتاين تفيد: أن أقصى سرعة ممكنة في الكون هي سرعة الضوء: ٣٠٠٠٠٠ ك. م في الثانية^(١) ويبرهن هو وغيره على ذلك ببراين علمية: أن أي جسم لا يستطيع أن يبلغ في سرعته سرعة الضوء، إلا أن يتبدل ضوء^(٢).

فلنفرض أن جسم النبي في السرعة المعراجية أصبح ضوء، إلا أن أربع ساعات: التي قدرت للسفرة المعراجية، لا تكفي إلا لاجتياز - - - - - ٧٣٢ ك. م التي لا توصله إلى آخر الكواكب من المنظومة الأدنى (الشمسية) للمجرة الأدنى، وهو (بلوتون) حيث تفصل عن الأرض ٥ و ٥ ساعات ضوئية، في حين أن قطر البعض من ملايين المجرات في السماء الأولى - فقط - ملايين من السنين الضوئية!، وبعض نجومها تبعد عنا أكثر من مائتي ألف مليون سنة ضوئية! فقطر السماء الأولى - سماء الأنجم - بليارات بليارات من السنين الضوئية، فكيف بالسموات الست الأخرى!

(١) يقول آينشتاين: «إن كتلة تصور مجموعة من الأجسام يمكن أن يعتبر دليلاً على مقدار طاقتها، وعلى ذلك يصبح قانون بقاء كتلة مجموعة ما مطابقاً لقانون بقاء الطاقة للمجموعة نفسها» (النظرية النسبية الخاصة والعامة لألبرت أنيشتاين - ترجمة دكتور رمسيس شحاتة ص ٤٨). ويقول: «إن طاقة الحركة هي لنقطة مادية تتحرك لم يحددها المقدار المعروف ك ع ٧ / ٧ بل يعبر عنها بالتعبير ك ح ٣ / ع ٣ / ح ٢ وهذا المقدار يقترب مما لا نهاية له كلما اقتربت السرعة - ع - من سرعة الضوء - ح - وعلى ذلك يجب أن تظل السرعة دائماً أقل من - ح - مهما كبرت العجلة» (المصدر ص ٤٦) والنتيجة أن: أي جسم مادي لا يمكن أن يساوي في سرعته سرعة الضوء.

(٢) يقول لينكلن بارنت: «إن أي جسم يبدو أنه يفقد طوله كلما اقتربت سرعته من سرعة الضوء فإنه يفقد طوله بمقدار ٩٠٪ ثم يزداد النقص بشكل أسرع حتى إذا وصل الجسم إلى سرعة الضوء فإنه لن يبقى له جسم طولي بتاتاً.



إلا أن النظرية الضوئية ما لبثت كثيراً إلا وقد نسفت، أولاً: بما يأتي من إمكانية تحقق هذه السرعة وأكثر دون تبدل بالضوء، على ضوء تقدم الطاقات في المركبات الفضائية، كما يقول بعض العلماء، وأن الفواصل بين النجوم ليس فيها الهواء أو يقل، فإنها خلاً لا تمنع وتعرقل السير هناك، فلا تخلق حرارة زائدة كذلك.

وثانياً: بأمواج الجاذبية، إذ يعتقد بعض العلماء أن باستطاعة أمواج الجاذبية أن تقطع المسافات من دون أن تستغرق أي وقت من الزمان.

يقول «كيوركيو»: بإمكان أمواج الجاذبية قطع المسافات التي تقاس بآلاف الملايين من السنين الضوئية في لحظة واحدة، فلو أن مجرة في آخر الكون تبدلت إلى أمواج، فإن الجاذبيات المتعادلة في الكون تغير من موافقها فوراً، وهكذا يكون رد الفعل للجاذبية بلا زمان، ولو أن رد الفعل الجاذبي كان يحتاج في قطع المسافات إلى الزمان، لكانت نتيجة تبدل المجرة - السابقة الذكر - إلى أمواج يؤدي إلى تفجر كافة المجرات أيضاً، والتبدل إلى أمواج، وذلك بفعل المصادمات العنيفة التي تقع في الكون بين المجرات^(١).

فهذه السرعة - إذاً - تنسف السرعة القصوى الضوئية، وإذا كانت أمواج الجاذبية تتحمل هذه السرعة دون زمان، فهل الجاذبية المحمدية - وفي معجزة إلهية - لا تتحمل سرعة أقل منها، أن يتم معراجها مرجعاً في أربع ساعات؟!.

ومع الغرض عن ذلك أيضاً، لنفرض أن سير المعراج يتطلب أشهراً، أن يتباطأ النبي في سيره أقل من الجاذبية بكثير، حتى يتطلب زمناً طويلاً، إلا

(١) (محمد نبي يجب معرفته من جديد) ويعتقد العلماء أن سرعة الابتعاد تتناسب طردياً مع مقدار بعدها عنا، فكلما كانت المجرة أبعد كانت سرعة ابتعادها أكثر.

أن الثابت قرآنياً، ومن ثم علمياً لحدّ ما: أن الزمان خارج منظومتنا يختلف تماماً عن زماننا، فقد يكون شهر من الزمان نقضيه خارج المنظومة، لا يساوي إلا ثانية بالنسبة لتوقيت أرضنا، وذلك لاختلاف الأوضاع والقوانين في مختلف المنظومات والمجرات، كما وأن لكلّ من كرات منظومتنا أيضاً قوانين خاصة.

إذاً فمشكلة السرعة والزمان، وهما أمّ المشاكل في هذه الرحلة الفضائية، أنهما نسفتا بأيدي العلم، فضلاً عن مشاكل أخرى هي دونها فأكثر نسفاً!.

مشكلة الحرارة:

اختلاف درجات الحرارة في مختلف طبقات الجوّ، إضافة إلى حرارة فوق التصور، تخلفها السرعة المعراجية^(١) بين الضوء والجاذبية، أنها تشكل خطراً على حياة صاحب المعراج، لا فحسب، بل فليتحول طاقة بين النور والجاذبية حتى يتمكن من هذه السفرة الفضائية.

وأوّل ما يخمد هذه الحرارة الخارقة هو القدرة الإلهية التي تجعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم، إضافة إلى أن محمداً ﷺ ركب مركبة مغلفة فيها كل المعدات لتلك السفرة العجيبة - علّه: البراق، على حدّ ما سماها، وقد تدل أوصافها المروية على هذه الإعدادات، التي لا تيسر لمن سوى الله، ولأنها معجزة الله وكما أشرنا مسبقاً: أن أهم ما يزيد في درجة حرارة المركبة هو الاصطدام بالفضاء، فوجود الخلأ في مسيرها بإرادة الله، يزيل مشكلة الحرارة، وكما يزيل مشكلة السرعة الخارقة التي تتطلبها الرحلة

(١) فإن السرعة من أهم العوامل لإيجاد الحرارة، لحدّ تجعل من الجسم أبسط الذرات (ثيودورجين) لكي تتحمل الحرارة الزائدة.

المعراجية، فعلى فرض الخلاء في مسيرها، وأنها تنجذب بجذبة القدرة الإلهية، ومعدّة بجهازات مكافحة، تنسف كافة العراقيل العشر، المتصورة، دون الرحلة المعراجية.

إن المسير الخلاء يساعد بآلاف الأضعاف على سرعة المركبة، والحفاظ على موقعها الحراري، وهذا الخلاء موجود فعلاً بين الكواكب، وكما يقول بعض العلماء: «بأن المركبات الجوية وصواريخها سوف تتمكن أن تسرع زهاء سرعة النور وما فوقها، لحدّ تتمكن أن نجول عمق الفضاء الشاسعة»...^(١).

فيذ يتمكن الإنسان الضعيف الضعيف أن يصنع مركبات هكذا، فماذا تظن بخالق الإنسان القوي القوي!

ولا بأس هنا باستعراض بقية المشاكل العشر بصورة وجيزة كالتالي:

مشكلة الجاذبية:

هذه المشكلة إنما هي بالنسبة لما يسرع أقل من ثمانية ك. م في الثانية: سرعة دوران الأرض حول محورها، وإذ تتخطى المركبات البشرية هذه المشكلة، بما تسرع أكثر من ٨ ك، م - فماذا على المركبة الإلهية التي تسرع كأمواج الجاذبية أو دونها؟ إضافة إلى تجاذب آخر بين صاحب المعراج وربّه سبحانه وتعالى.

(١) ماذا أعلم - تأليف JEAN PELANDINI ص ١٣١ : يقول: وإن المفكر الأخصائي الشهير الألماني (دكتور أوجن سانكر) هكذا يتنبأ، أن ميكانيك الطيران لصواريخ (يوني) أو (فوتوني) مما يشهد لتغيير مفهوم المسافة والزمان والفضاء والسرعة. ثم يستمر المؤلف قائلاً: إن نظرية النسبية بالنسبة للصواريخ التي سوف تخرق الجو بسرعة الضوء أو ما فوق الضوء، أنها تجعلنا نفكر في تسخير عوالم جدد، فبموجب هذه النظرية نتأكد أننا سوف نجتاز مسافات بعيدة هي بالقياس إلى أرضنا لا نهاية: بأن نعد الصاروخ بقدر خاص من المواد المحترقة المحركة، المناسبة للصاروخ، فنصل إلى حدود الكون.

كما وأن مشاكل: انعدام الوزن^(١) وتخطي الغلاف الجوي^(٢) والتخلص من الشهب^(٣) و انعدام الأوكسيجين^(٤) والأشعة فوق البنفسجية والأشعة السينية^(٥) والأشعة الكونية^(٦) - هذه المشاكل كلها تندحر وتنسف، بعدما عرفنا المركبة المعراجية وراكبها، وجاذبها، وحركتها، وفوق كل ذلك القدرة اللانهائية الإلهية.

ومن ثم ننظر هل أن المركبة المعراجية هي الجذبة الإلهية، دون أية وسائط؟

كما قد توحى بها آية الإسراء: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾^(٧) وآيات النجم خلّو عن التلميح بأيّة مركبة تحمله، وإن لم تعارض ما يدل على مركبة أخرى.

(١) حيث الوزن هنا ليس إلا نتيجة الجاذبية الأرضية، فالبعد الكثير عنها يفقد الوزن، ولكن المركبة المعراجية تحل هذه المشكلة وأخرى مما حلّتها (أبولو) وغيرها.

(٢) يتشكل الغلاف الجوي من خليط من الغازات المحيطة بالأرض، ويحدث فيه خلط مستمر للهواء نتيجة التيارات الصاعدة والهابطة، ويمتد غلاف الأرض فيما وراء ٥ و ٩٦ ك. م، ويعتبر هذا الغلاف الجوي للأرض المركب من عدة عناصر، بمنزلة مظلة واقية للأرض من الشهب والنيازك النارية وسواهما، كما أنه من موانع الرحلات الفضائية، لأنه يؤدي إلى الاحتراق لو لم تكن سرعة المركبة متوازية مكافحة، ولكن مركبة المعراج، فيها كافة المعدات والمكافحات!.

(٣) وكما تكافح هذه المركبة بصلابة غلافها الشهب وما فوقها.

(٤) والأوكسيجين الضروري لصاحب المركبة موفرة في داخلها، وحينما يخرج صاحب المعراج فليس من الصعب أن يختصه الله بما يبقى حياته خارجاً عن المركبة، كما وأن المركبة ليست ضرورية لهذه وتلك كما قدمناه.

(٥) وأما الأشعة فوق البنفسجية وهي الأجزاء غير المرئية من أشعة الشمس، البالغة الخطورة، وكذلك الأشعة السينية (x) النابعة من الشمس أيضاً، هاتان الأشعتان مهما كانت أخطارهما، فليستا شيئاً بجنب المركبة المعراجية، بعد أن تكافحهما المراكب الفضائية البشرية.

(٦) وهي لم تعرف مصدرها، وتكافح في أخطارها بما كافحتها المركبة المعراجية، فكل هذه المشاكل الست تنحل بعدما عرفنا مركبة المعراج وراكبها وجاذبها ومدى سيرها - والله أعلم.

(٧) سورة الإسراء، الآية: ١.

أو أنه جبرئيل أو ميكائيل وإسرافيل^(١) لحدّ ما، إلى سدرة المنتهى، ثم منها إلى ما فوقها لم تكن إلّا جذبة واصبة إلهية، كما لم يكن بينه وبين الله أحد حتى نفسه في مقام التدلي؟.

أو أنه أمواج الجاذبية بما قدر الله كما قد يشير إليها الحديثان: «فأتى بالمعراج... فعرج به إلى السماوات سماء سماء»^(٢) «فوضع له مرقاة من ذهب ومرقاة من فضة وهو المعراج حتى عرج جبرئيل والنبى ﷺ إلى السماء»^(٣) فلعل المرقاة الذهبية والفضية هي أمواج الجاذبية أو باب المعراج السماوي: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾^(٤): الباب التي عرج فيها الرسول ﷺ بالجاذبية التي عرج بها ومعه جبرئيل، فهي مرقاة جبرئيل وأمثاله من عارجي السماء دوماً، لا تفتح لغيرهم من العارجين.

أو أنه «البراق» في الرحلة الأولى من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم غيرها إلى السماوات^(٥) أو أنه الحامل في رحلتيه^(٦) إلى موقف جبرئيل في السماء، ثم عرج الرسول وحده بما عرج.

(١) نور الثقلين ٣: ٩٨ - ح ٦ - احتجاج الطبرسي عن ابن عباس عنه ﷺ: وحملت على جناح جبرئيل...

وفيه عن الصادق عليه السلام أن جبرئيل احتمل رسول الله ﷺ حتى أتى به إلى مكان من السماء... وفي تفسير العياشي عن أبي عبد الله عليه السلام لما أسري بالنبى ﷺ أتى بالبراق ومعه جبرائيل وميكائيل وإسرافيل... وفي تفسير القمي عنه عليه السلام جاء جبرائيل وميكائيل وإسرافيل بالبراق إلى رسول الله ﷺ... أقول: والأحاديث في حمل جبرائيل إياه أكثر.

(٢) الدر المنثور ٤: ١٥٦ - أخرجه ابن سعد وابن عساكر عن الواقدي عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي سبرة وغيره من رجاله عن رسول الله ﷺ...

(٣) الدر المنثور ٤: ١٥٧ - أخرج الواسطي في فضائل بيت المقدس عن كعب عن النبي ﷺ.

(٤) سورة الحجر، الآية: ١٤.

(٥) كالجاذبة الإلهية والمحمدية بما هيأه الله لها أم ماذا؟.

(٦) الدر المنثور ٤: ١٤٠ عنه ﷺ «ثم أوتيت بدابة... فحملت عليه فانطلق بي حتى أتى بي السماء»... =

ثم ترى ما هي مواصفات البراق، الذي تحمله عشرات الأحاديث؟ ولكي ننسف بها مشاكل المعراج نسفة أخرى:

(براق) اسم لم نعهده لأي حيوان أو أية مركبة من صنع الإنسان؟ مما يلمح أنه مركبة سماوية ومن صنع السماء، و«قد أتى بها جبرئيل من السماء»^(١) «خلقت لأجله ﷺ ولها في جنة عدن ألف سنة»^(٢). كما ويشير أنه من البرق، تدليلاً على كونه في لمعانه وسرعته كالرعد والبرق.

ومن مواصفاتها التي تقربها إلى أمواج الجاذبية أنه: «أضاء له ﷺ كما تضيء الشمس»^(٣) فكان «لها شعاع كشعاع الشمس»^(٤) و«لو أن الله تعالى أذن لجالت الدنيا والآخرة في جرية واحدة»^(٥) أو «كلمح البصر»^(٦) كإمكانية السرعة القصوى لهذه المركبة المعراجية، وإن «كانت خطاه بمد بصره»^(٧) فإذا كان مد بصر الإنسان بالعيون العادية وهو الأنجم التي ترى في السماء الدنيا، آلاًفاً من السنين الضوئية، فما هو إذاً مد بصر هذه المركبة العجيبة، التي كان «له عيان في أسفلها»^(٨) «يمكن رؤية الأرض منهما واضحة جلية»^(٩).

= وفي تفسير البرهان ٢: ٤٠٢ عن الصادق ﷺ عنه ﷺ فلما صرت عليه (البراق) صعدت إلى السماء.. ورويت الجنة.

- (١) الدر المنثور ٤: ١٤٠ عنه ﷺ: «فأتاني جبرائيل بدابة بيضاء»...
- (٢) تفسير البرهان ج ٤: ٤٠٥ عنه ﷺ.
- (٣) الدر المنثور ٤: ١٥٧ عنه ﷺ...
- (٤) تفسير البرهان ٤: ٤٠٤ - ابن الفارسي عنه ﷺ...
- (٥) تفسير البرهان ٢: ٤٠٤ في صحيفة الرضا ﷺ قال رسول الله ﷺ...
- (٦) في ٤٠٥ البرسي عن ابن عباس عنه ﷺ سأل جبرائيل ما سير هذه الدابة فقال: إن شئت أن تجوز بها السماوات السبع والأرضين السبع فتقطع سبعين ألف عام وسبعين ألف مدة كلمح البصر.

(٧) روضة الكافي عن الباقر ﷺ خطاه مد بصره - وفي ذلك روايات كثيرة.

(٨) تفسير البرهان ٢: ٤٠٠ عن العياشي عن الباقر ﷺ.

(٩) البحار ج ١٨ ص ٣٥٧ نقلاً عن علل الشرائع.

كما وأنها كانت مزودة بآليات موجية وضوئية مختلفة الألوان والكيان :
 إذ «كان فيها أربعون نوعاً من النور»^(١) «وكانت مزمومة بسبعين ألف
 زمام»^(٢) : علّها الأزمة الموجية والضوئية أم ماذا! دون الأزمة الأخرى التي
 تزم بها الحيوان! فإن «حجمها كان بين حجم البغل والحصان» فلو أن براق
 كان حيواناً، فليكن سبعين ألف ضعف حيوان، ويحتاج إلى زمام واحد؟.
 ثم هو «محمل له ألف ألف لون من نور»^(٣) و«عليه ألف ألف محفة من
 نور»^(٤)

و«كانت له مثل وكر الطير»^(٥) مما يشير إلى أن النبي دخل فيها ولم
 يركب عليها، ف «ركبها» في جملة من أحاديثنا، تفسر بالدخول فيها، وهكذا
 يجب أن تكون المركبة المعراجية، محفظة تحافظ على صاحبها من عرقلات
 واصطدامات هذه السرعة الخارقة الجوية، ومع مليون محفة من نور!.

وقد تكون المحفات النورية في هذا المحمل هي المعدات الموجية أو
 الضوئية أم ماذا؟ التي تحافظ على غلافه الخارجي، وتسرع المركبة - علّها
 - ملايين أضعاف سرعة الضوء أم ماذا؟ ففي ساعة واحدة أرضية تسير هذه
 المركبة ٠٠٠ ، ٠٠٠ ، ٠٠٠ ، ٠٠٠ ، ٠٠٠ ، ٠٠٠ كيلومتراً وإذا كانت الساعة
 السماوية آلاف أضعاف الساعة الأرضية، فلتكن المسافة التي اجتازتها
 المركبة لساعة واحدة أرضية آلاف أضعاف هذا العدد الهائل أم ماذا؟

(١) البحار ج ١٨ ص ٣٥٥.

(٢) البحار ج ١٨ ص ٣٧٨ نقلاً عن كتاب الخرائج وعن روضة الكافي عن الباقر عليه السلام.

(٣) العياشي عن عبد الصمد بن شيبه قال : ذكر عند أبي عبد الله عليه السلام بدو الأذان - إلى أن قال في
 قصة المعراج - : ثم وضع في محمل له ألف ألف لون من نور ثم صعد به حتى انتهى إلى
 أبواب السماء . . .

(٤) العياشي عن عبد الصمد . . سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : جاء جبرائيل رسول الله
 بالبراق . . عليه ألف ألف محفة من نور . .

(٥) سعد السعود ص ١٠٠ - ١٠١ وبحار الأنوار ج ١٨ ص ٣١٧.

وطالما يكون سيرها بين سرعة الضوء وأمواج الجاذبية ليس علينا أن نقدر أي تقدير لهذا المسير، فالعلم عند الله العلي القدير.

ومما يساعد على سرعتها أنها «كانت لها جناحان يحفزانهما من خلفها»^(١) «وأذنان مضطربتان»^(٢) فالجناحان للطيران، والأذنان للحفاظ على توازنها في السير، أم ماذا؟ «وفيها حلق وسلاسل كلما ارتفعت زادت»^(٣) وعلّهما المعدات المناسبة لمختلف الارتفاعات والأجواء.

ولقد كان فيها إذ دخلها النبي ﷺ ملكان سلما عليه ورحّبا به فأجاب ودعيا له ﷺ ودعا لهما»^(٤) علّهما سائقها أم ماذا؟.

فيا لها من مركبة منقطعة النظير، عرجت بالرسول البشير النذير ﷺ إن كان من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، أو كان إلى السماوات للحدّ الأقصى في أقصى الاحتمالات، إذ إن بإمكانها طي السماوات دنيا وعقبى في جرية واحدة، طالما كانت الرحلة المعراجية مدّ بصرها.

وإننا لنقضي عجباً من معداتها وآلياتها الموجية والضوئية! ترى أن شعاعاً كشعاع الشمس، وأربعون نوعاً من النور، ومليون لون ومحفة من نور، وسبعون ألف زمماً، هذه المعدات العجيبة التي نجهلها، أليس بالإمكان أن يعرج بمركبتها صاحب المعراج؟ وهو يملك أقوى من هذه الأنوار! وهو يعرج بإرادة الله! أليس هذا بالحق؟ وهذا الإنسان الضعيف الهزيل يعد لنفسه سرعة أقوى من سرعة الضوء!.

ثم لو أغمضنا النظر عن هذه المركبة ومواصفاتها، فهذه الرحلة الفضائية، لو أغمضت على العلم تحليلاً، فالقدرة اللانهائية الإلهية تحللها،

(١) البحار ج ١٨ ص ٣٨٧ نقلاً عن الخرائج.

(٢) روضة الكافي عن أبي جعفر عليه السلام في وصف البراق: مضطرب الأذنين.

(٣) البحار ج ١٨ ص ٣٥٥.

(٤) اليقين في إمرة أمير المؤمنين ص ٨٣ - ٨٧.

ما دامت خارجة عن الاستحالة الذاتية، وكما أن القرآن يذكر طرفاً من السرعات الخارقة للعادة وغيرها من الآيات المعجزات، التي قد يعجز العلم عن تحليلها، دون أن يحيلها، فقد يحللها وقد لا يحيلها إذا لا يحللها:

من ذلك عرش بلقيس، إذ أحضره الذي عنده علم من الكتاب: ﴿قَالَ يَأَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِي قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ . . . قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَانِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾^(١) وبما أن ارتداد الطرف يتحقق بأقل من ثانية، فقبل ارتداده قد يكون أقل منها بكثير.

فإذا كان بإمكان الذي عنده علم من الكتاب أن يسرع هكذا، فكيف للذي عنده علم الكتاب كله!.

ثم وأهم من سير العرش، سير اليوم الربوبي في المعارج، كما شرحناه فيها، فواحد الزمان عند الله يحمل مسيرة خمسين ألف سنة، وهذا الواحد حسب الأرض هو المناسب للحركة الأولى للمادة الأم، ولعلها أقل من ثانية بمئات المئات، ثم الملايين الملايين من هذه الوحدات في بعض العوالم الأخرى، قد تكون بمقدار الواحد الأرضي، أن تمضي أنت في سفرك عمق الفضاء شهراً، ولا يكون حسب الأرض إلا ثانية أو أقل، فالرحلة المعراجية التي كانت زهاء أربع ساعات حسب الأرض وهي ١٤٤٠٠ ثانية إنها قد تكون ١٤٤٠٠ شهراً أو يزيد حسب السماوات، فإذا تسير المركبة المعراجية في كل آن من هذه الأشهر قدر خمسين ألف سنة، يصبح المعراج أبطأ من سرعة أمواج الجاذبية، بملايين أضعاف ما تتطلبه هذه المسافة.

فالاختلاف بين الزمن الأرضي وبين سواها من العوالم السماوية شيء ثابت، قدر اختلاف موازين الحركات والأوضاع والقوانين المتحركة فيها.

(١) سورة النمل، الآيات: ٣٨ - ٤٠.

وكما أن هناك بين الزمن الأرضي، أو الدنيوي عامة، اختلافاً عكسياً مع الزمن البرزخي، فقد يساوي عمر الحياة الإنسانية هنا ساعة من نهار أو بعض يوم أو يوماً أو عشرة أيام، حسب الزمن البرزخي، كما نستوحيه من آيات عدة^(١).

وبعد كل ذلك، إذا كانت المركبات الفضائية والصواريخ، تهتدي بقيادات بشرية، من دواخلها أو مركبات أخرى، أو من الأرض^(٢)، فالمركبة تستمر في رحلتها الجوية كما يهدها قائدها في الأرض، وهي مصيبة في أهدافها المخططة المرسومة لها في القيادات الأرضية، إذاً فما ظنك بالمركبة المعراجية التي تقودها قدرة الله، خالق السماوات والأرض، التي تقود البلايين البلايين من المركبات الكوكبية، بمجراتها السماوية وبسرعات تفوق الزمان والمكان، كما في أمواج الجاذبية، تُرى أن جاذبية الخالق، وجاذبية وانجذاب محمد ﷺ أقل من الجاذبية التي تحلّق على الزمان والمكان؟!

خلاصة عن الرحلة المعراجية:

هذه المركبة المعراجية مزدودة بما يكافح عراقيل السرعة والحرارة والزمان وسواها، إضافة إلى أن مسيرها بإرادة الله، وبالطبع في البعض من أجزائه - هذا المسير خلو من الأجزاء الهوائية، فالمصادمة الهوائية التي تقلل من حركة المركبة وتزيد في حرارتها، هي عديمة في مسير هذه المركبة، وقد يكون سيرها بسرعة زهاء سرعة أمواج الجاذبية، إضافة إلى اختلاف مقاييس الزمان بين الأرض والعوالم الأخرى، التي قد تجعل شهراً من الزمان السماوي ثانية أرضية أو أقل.

(١) راجع ج ٣٠ «زمن لبث البرزخ».

(٢) كالصاروخ الإنكليزي الحربي «جينديويك» jindivick فانها طائرة دون قائد، وهي سرعتها ٨٠٠ ك. م. في الساعة.

فهذه هي مركبة المعراج، وعلّ مسيره كذلك يختلف عن سائر المسير بقدرة الخبير البصير، فقد يكون باباً من السماء تخص هكذا عروج فلا تفتح لغير صاحب المعراج، وقد توحى له: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ (١) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾ (١) فإنها الباب التي يفتحها الله ﴿فَتَحْنَا﴾ دون الإنسان مهما بلغ من العلم! فالعروج فيه يحير عقول الناكرين فيلجئون إلى خرافة السحر إن اجتازوا واقعه.

إذاً فلم تبق مشكلة علمية أم سواها، تعرقل الرحلة المعراجية، فتشكك دون تصديقها، أو تكون حجة لغيره في تكذيبها.

القرآن وتسخير الفضاء:

عشرات من آيات الله البينات توحى بإمكانية الرحلات الجوية وواقعها، بين أمرة بها بغية الاستطاع على المملكة السماوية لازدياد المعرفة بالله، وبين مبشرة بأنها سوف تتحقق أو مضت، بحثنا عنها في طيات آياتها التي تتحدث عنها، مما أضاءت للبشرية بريقات الآمال في تسخير الفضاء، فأصبحت تجاهد للتوصل إلى هذه البغية منذ مئات من السنين فأخذت تستوحي منها، ومن مختلف أنواع الطير دروساً، تتابع على أضوائها في محاولة بعيدة المدى، للرحلات المختلفة إلى أعماق الفضاء، وقد وفقت حتى الآن لشيء ما، عبر الطائرات، فالصواريخ، والمركبات والأقمار الصناعية التي نزلت على سطح القمر، وتحاول الوصول إلى الكرات الأبعد فالأبعد، واحدة تلو الأخرى.

فغزو الفضاء بشارة سماوية قبل أن تكون فكرة أو محاولة أرضية أو واقعاً منها، وكما نستبشرها من الآيات التالية:

(١) سورة الحجر، الآيتان: ١٤، ١٥.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾^(١) يعني جمع الدواب المنبثة في الأرض والسموات، إذا يشاء الله، و«هم» توحى على أقل تقدير بأن مجموعة من هذه الدواب عقلاء من هنا وهناك، فسوف يتحقق الجمع بين إنسان الأرض وإنسان السماء، وطبعاً بالغزو المتقابل.

وكما نؤمر في آيات بغزو الفضاء: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٢).

وليس مجال النظر المأمور به هو السماوات من بُعد فقط، حيث النظر إليها من قربها هو البالغ الأهمية في مجال المعرفة واستحكام الإيمان، مهما كان للنظر من بعيد علمياً كذلك نصيبه.

وقد تدل آية المرور، على غزو الفضاء في أعماقها: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾^(٣)، فالمرور - ولا سيما بصيغة المضارعة: ﴿يَمُرُّونَ﴾ ما يوحي تماماً أن البشرية تستقبل المرور على الأجواء البعيدة، وآيات عظيمة في السماوات، كما في الأرض، مهما كان واقع المرور حين نزول الآية هو المرور البصري والنظري من بُعد، ولكننا - حسب تنبؤ الآية - وصلنا لحدّ المرور على القمر، ثم سوف نمرّ على سائر الآيات والكرات السماوية.

وقد مرت وتمرّ عليكم آيات غرو الفضاء في مجالاتها الأنسب والأحرى تفصيلاً.

(١) سورة الشورى، الآية: ٢٩.

(٢) سورة يونس، الآية: ١٠١.

(٣) سورة يوسف، الآية: ١٠٥.

﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ﴿٢٥﴾ وَكَرَّ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴿٢٦﴾﴾ :

تمنيات مسبقة في آيات من المشركين، من فرية الهوى على رسول الهدى وتكذيبه أنه رأى ما رأى، وأوحى إليه ربه ما أوحى، في حين أنهم يرون اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، وأن لهم الذكر وله الأنثى أم ماذا، تجرفها كلها بعد انجرافها بما مضى :

﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى﴾ : هل للإنسان ما تمنى؟ إن للإنسان أمنيات صادقة قد يتوصل إليها بما يتوصل بوسائلها إن أرادها الله وقد لا يتوصل، وأخرى كاذبة، فإذا كانت تلك حالة الصادقة، فماذا تظن بالكاذبة، فليس الإنسان هو المحور الرئيسي للكون حتى يكون له ما تمنى، مهما يصل في حمقه لعمقه إلى حد يتمنى ما لله لنفسه، وما لنفسه لله! ملحدًا في الله محادًا له كأنه الله .

ثم مهما ملك الإنسان من تمنياته الصادقة بحجة أو سعي، فهو لا يملك أي تمن بمجرد التمني دون حجة أو سعي، والتمنيات المسبقة ونظائرها للمشركين لا تملك أية حجة أو إمكانية سعي، أسعيًا للتغلب على الألوهية، أو فرض أمر أو حالة على الله، أو فرض تحويل أو تحويل في رسالة الله، التي تجمعها صيغة واحدة: تمني المحال أو ما لا يجوز على الله!

هذا - وإن تمنيات رسل الله التي كلها حقة وبوحي من الله، أنها لا تتحقق ككل رغم أنهم على الحق والحجج البالغة التي يملكونها، والمساعي التي يبذلونها، إلا بتوفيق من الله : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكُمُ اللَّهُ ءَايَتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾^(١) والآيات التي يحكمها الله هنا هي تمنيات

الرسول التي قد تعرقل بإلقاءات الشيطان - وطبعاً لا في قلوبهم - وإنما في قلوب غيرهم: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ (٥٣) وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ (١).

وإذا كانت هذه حالة تمنيات المرسلين - الحققة - فكيف بمن دونهم، ثم كيف للكافرين؟! . . ف «إذا تمنى أحدكم فلينظر ما تمنى فإنه لا يدري ما يكتب له من أمنيته» (٢) فإن هوى النفس ومناها لا تحوّلان الواقع، ولا تخلقان غير الواقع، فلتحصر أمنيات الإنسان في الحقائق وبتوفيق الله، فإن الأمر كله لله:

﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾: مهما كنا مخيرين في الأولى بعض الشيء، فإن هذا الاختيار لا يملّكنا كل ما نتمنى، وفي تقديم الآخرة على الأولى هنا رعاية لموسيقى اللفظ على هامش المعنى، حيث السيطرة الإلهية ظاهرة واقعة في الآخرة تماماً، مهما خفيت في الأولى أو خفت بإرادة الله، ولواقع الاختيار فيها دونها.

وهذا شيء ملموس من الأسلوب القرآني: أنه يجمع بين تنعيم اللفظ وتنعيم المعنى، دون إخلال بأحدهما على حساب الآخر، إذ لا تضيق الألفاظ والمعاني على الله، فليس تجريد التجميلات اللفظية عن جمال المعاني - أحياناً - إلا من هرطقات القاصرين، كأن القرآن في أنظارهم كتاب شعر أو موسيقى قبل أن يكون كتاب حقيقة أو معنى!.

(١) سورة الحج، الآيتان: ٥٣، ٥٤.

(٢) الدر المنثور ٦: ١٢٧ - أخرج أحمد والبخاري والبيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول

الله ﷺ:

ونسفًا لأهم تمنيات المشركين في الآخرة - عن معبوديهم: بنات الله الملائكة: أنهم شفعاؤهم عند الله، تمنّ عاطل فوق تمنيات باطلة - تأتي التصريحة:

﴿وَكَمْ مِنْ مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى...﴾ فكيف بتماثل ملائكة في الأرض؟!

فلنفرض أن الملائكة بنات الله! وأنهم معبودون من دون الله! ولكنهم - لو صدقت تمنياتهم فيهم - ليسوا بشفعاء عند الله، إلا لمن ارتضاه الله، دون فوضى رغم تقولهم ﴿هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾^(١) فإنما الشفاعة كلها لله، وبإذن الله ﴿لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ من الشافعين والشفّاع لهم سواء، دون فوضى هنا أو هناك.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمُنُوا الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةً الْأُنثَى وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾^(٢) :

كلام في العلم والظن:

مما لا بد منه أن تكون كل حالة نفسية أمام الواقع، مسنودة إلى برهان مبين، سواء أكانت قطعاً أو علماً أو ظناً أو شكاً أو وهماً^(٢) وإن كان البرهان هو عدم وجود الدليل أو عدم وجدانه، فالظن غير المسنود إلى دليل وثيق مرفوض، فإنه ظن الهوى وليس ظن الهدى.

(١) سورة يونس، الآية: ١٨.

(٢) من الملاحظ أن القرآن قد يصف الشك بأنه مريب، مما يدل على أن من الشك ما لا يريب، فالشك المريب هو المسنود إلى برهان متين يسببه، وغير المريب ليس إلا شك الهوى، وكما أن من العلم واليقين ما هو نابع عن الهوى، ومهما لم يمكن ردع هذا القاطع عن قطعه ما دام قاطعاً، إلا أن بالإمكان تنبيهه على خطأ الطريق، وبذلك يزول قطعه، وهكذا قطع ليس بحجة لأن مقدماته الخاطئة اختيارية، مهما لم تكن إزالة القطع دون نظر ثانوي ثاقب إلى المقدمات خارجة عن الاختيار.

وهنا يندد بظن الهوى مرة أخرى بعدما مضى: ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِن رَّبِّهِمُ الْهُدَى﴾.

فالظن ظنان: ظن من هوى وهو مردول، وظن عن هدى وإليها وهو مقبول، فهنا تحرضنا الآيات على التمسك بالعلم، ولكنه ليس ليحصل دوماً وفي كل شيء، فليكتفَ بالظن المسنود إلى العلم، والنابع عنه، فإنه اتباع للعلم، كالأدلة والأصول، غير المفيدة للعلم، الاستفادة من العلم: عقلاً ونقلًا: كتاباً وسنة، فهي داخلة في اتباع العلم، خارجة عن الظن المرفوض.

ففي ساحات الحجاج لإبرام أمر أو نقضه: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾^(١) تنديداً باتباع ظن الهوى، وإن كان اعتقاداً راجحاً، فضلاً عن الشك والوهم، بل وكذلك العلم الحاصل عن الهوى دون أصل وثيق أو هدى أو كتاب منير: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾^(٢). ﴿أَتُنَوِّى بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٣). ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهُدَىٰ مَعَكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحَلَّهُمْ وَلَوْلَا رِجَالُ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَّوُّهُمْ فَتَصِيْبَكُمْ مِّنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيَدْخَلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾^(٤). ﴿قُلْ هَلْ

= وقد يسمى القطع والعلم الحاصل عن الهوى ظناً ويراد به الوهم، كما يراد من الظن في الآيات الرادعة عن الظن والعمل به.

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٤٨.

(٢) سورة الحج، الآية: ٨.

(٣) سورة الأحقاف، الآية: ٤.

(٤) سورة الفتح، الآية: ٢٥.

عِنْدَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا^(١). ﴿نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٢) ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾^(٣).

فإنما المغني من الحق هو علمٌ أو أثارة منه، أو هدى أو كتاب منير - ليس إلا.

فالعلم هنا، لكونه قرن كتاب منير أو هدى، هو الحاصل عن غير وحي، علم وجداني أو عقلي أو حسّي، ومن ثم فـ ﴿هُدًى﴾ هذه، هي وحي يوحى إلى صاحبه، فـ ﴿كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ كتاب يحمل وحي الله، فالأخير علم رواية صادقة قاطعة، والأولان علم دراية ذاتية، أو من وحي وهو أعلى منهما، وأثارة من علم هي رواية تحمل أثراً من العلم، مهما حصل منها علم أو دونه، وهو ظنٌ مسنود إلى علم أو كتاب منير.

فإنما الظن المرفوض، الذي لا يغني عن الحق شيئاً، هو ظن الهوى كما مضى، وظن الجاهلية: ﴿يُظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾^(٤) ظن لا يستند إلى علم أو أثارة منه ولا هدى ولا كتاب منير، وإنما إلى هوى جاهلية، مهما كانت دركاته ودركاتها، فقد يكون علماً كما يخيل، أو اعتقاداً راجحاً أو شكاً أو وهماً، وتشملها كلها صيغة الظن، تعني الوهم، إذ لا سناد لها كلها إلا هوى جاهلية، مهما زينتها بما يخيل إلى صاحبها أنها علمٌ! ولكنها بدركاتها لا تغني من الحق شيئاً^(٥).

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٤٨.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٤٣.

(٣) سورة النور، الآية: ١٥.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٥٤.

(٥) كمن يقولون ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الباقية: ٢٤] - فيردّ عليهم ﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الباقية: ٢٤] حيث اعتبر علمهم المدعى ظناً ووهماً - مهما كان علماً عندهم - إذ لا يستند إلا إلى الوهم.

كما وأن للأربعة المسبقة من منابع العلم والظن الحق، درجات، فمنها ما تغني من الحق كل شيء، كالعلم الخالص المصيب، وهدى الوحي، ثم نصوص الكتاب المنير، الحامل للوحي، وظواهرها المناهضة للنص، فإنها تصيب ولا تخطيء، فهي تغني من الحق كل شيء.

ومنها ما تغني من الحق بعض الشيء، كالظن الحاصل من إثارة من علم، من رواية تحمل الوحي وعليها أثره، وهو موافقتها له وعدم مخالفتها إياه، كأخبار الآحاد، التي لا تنافي الكتاب والسنة القطعية، وتوافقهما إجمالاً.

وكظواهر الكتاب، والسنة القطعية، فيما تختلف فيها الأنظار، وبعد تثبت شامل، واجتهاد كامل، فإنها قد تفيد العلم، وقد لا تفيد إلا الظن، ومن هنا يأتي اختلاف الفتاوى، مهما كانت الأنظار ثاقبة، والأفكار صائبة، فإنها ليست وحي مباشرة، أو نصاً قاطعاً.

فهذه الظنون النابعة عن ظاهر علم، أو إثارة من علم، إنها ليست مرفوضة، لأنها تنبع عن هدى، دون جهل أو هوّى، والآيات المنددة باتباع الظن، الأمرة باقتفاء العلم، الناهية عن اقتفاء غير العلم، لا تعني إلا التحرز عما يحصل عن جهل أو هوّى، فالظن الحاصل عن علم أو هدى، هو علم وفي حساب العلم: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾^(١).

ثم الظن قد يكون ظن القلب، النابع عن علم من العقل، المتجاوب مع العمل، فهذا الظن أفضل من العلم غير المتجاوب مع العمل، غير الواصل إلى القلب: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾^(٢) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقَوْنَ رَبَّهُمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ^(٣)، فترى كثيراً من العالمين

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣٦.

(٢) سورة البقرة، الآيتان: ٤٥، ٤٦.

بعقولهم غير خاشعين، فالخشوع حالة قلبية لا تحصل إلا بعلم عقلي ممارس عملياً، ولكي يتجاوبا في اعتقاد راجح قلبي.

ومنه: ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْقٍ حِسَابَةٍ﴾^(١) ﴿وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا﴾^(٢) ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلتَقُوا اللَّهَ كَم مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةُ كَثِيرَةٍ يَادِّينِ اللَّهُ﴾^(٣)، فإنها علم كلها.

وأما الظن، بمعنى الاعتقاد الراجح العقلي - كما مضى - فهو ممدوح إذا لم يكن عن جهل أو هووى، مهما لم يغن عن الحق كل شيء في أصول الدين وما ضاهاها، إلا أنه في طريق الحق، فممدوح في هذه السبيل حتى يتحقق العلم فيغني من الحق كل شيء، حيث الحق لا يحصل، أو قليلاً ما يحصل، دون تدرج من اعتقاد راجح إلى أرجح وإلى جزم.

وأما الأحكام، فلا سبيل للجزم بها إلا قليلاً من سبيل علم أو إثارة من علم أو كتاب منير، وكثيراً ما يحصل الظن كما في معظم الأدلة والأمارات، من رواية أو ظاهر أم ماذا، وكثيراً ما لا يحصل حتى الظن كالأصول، المضاهية للأمارات وسواها^(٤).

(١) سورة الحاقة، الآية: ٢٠.

(٢) سورة الجن، الآية: ١٢.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٤٩.

(٤) كالأستصحاب وقاعدة الاشتغال والفراغ، فإنها لا تفيد الظن إلا قليلاً وإن كانت تشبه الأمارات، وكقاعدة الطهارة وأمثالها التي وضعت للخروج من موارد الشك بحجة وضابطة، فإنها لا تفيد الظن إطلاقاً، فإذا كنت على ظن من نجاسة شيء من دون حالة مسبقة، تجري هنا قاعدة الطهارة وتحكم بها، وفي اعتقادك الراجح أنه غير طاهر، وقد تمر عليك تفاصيل عن الحجج الشرعية في مجالاتها الأنسب والأوسع.

وأما الآراء الناتجة عن القياسات والاستحسانات وسواها مما لا أثر له في الدين، فكلها باطلة، ومن لطيف ما يروى ممن رأى آراء في الدين من هذا القبيل ما أخرجه ابن أبي حاكم عن عمر بن الخطاب قال: احذروا هذا الرأي على الدين فإنما كان الرأي من رسول الله ﷺ مصيباً لأن الله كان يريه وإنما هو ها هنا تكلف وظن، ﴿وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [النجم: ٢٨] (الدر المنثور ٦: ١٢٧).

فلو انحصرت السبيل إلى تحصيل الأحكام بالعلم، حصرت الأحكام في قليل من الضروريات الثابتة قطعياً، ورفضت الأكثرية الساحقة منها عن ميادين العمل، وبطلت الشريعة في قسم كبير من فروعها، وليس في سماح العمل بهذه الظنون تخصيص في عمومات الآيات الناهية عن العمل بالظنون، فإنها آية عن التخصيص، وآتية إلى ظنون الجهل والهوى فلا حاجة إلى تخصيص.

ومن وصمات الظنون المرفوضة أنها لمن تولى عن ذكر الله ولم يرد إلا الحياة الدنيا، فهم يرفضون الهدى إلى الردى، والعلم إلى الظن، وقد جاءهم من ربهم الهدى:

﴿فَاعْرِضْ عَنْ مَّن تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۚ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِّنَ الْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّٰ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَن أَهْتَدَىٰ﴾ (٣٠):

﴿ذَٰلِكَ﴾: - الظن البعيد البعيد - ﴿مَبْلَغُهُمْ مِّنَ الْعِلْمِ﴾، يحسبونه علماً، وليس إلا وهماً لا يملك برهاناً، فلا يغني من الحق شيئاً.

فإذا أصبحت الدنيا مبلغ العلم، وأكبر الهَمِّ، أصبح طالبها كالأنعام وأضل سبيلاً، اللهم «لا تجعل الدنيا أكبر همنا ومبلغ علمنا» (١).

فأهل الدنيا، الراكنون إليها، المطمئنون بها، المريدون لها، الواقفون عندها، ليس لهم بالنسبة للآخرى وحقائقها، وللحق عامة، إلا ظنوناً جاهلة هಾಯية، مهما كانوا علماء في علوم الدنيا، بشهواتها ولهواتها، فلا يليق لك

(١) الدر المنثور ٦: ١٢٧ - أخرج الترمذي وحسنه عن ابن عمر قال: قلما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الدعوات لأصحابه: «اللهم اقسم من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون علينا مصيبات الدنيا، ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا، وقونا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا، واجعل ثارنا على من ظلمنا وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا».

منهم، إلا الإعراض عنهم، بعدما تولّوا عن ذكر الله، عن كتاب الله وسائر حجج الله، التي تذكّروهم الله.

إن أصحاب المذاهب المادية، والمآرب الحيوانية، لا سبيل فيهم إلا الإعراض عنهم، حيث لا يفهمون لغة الإنسان ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ (١).

والإعراض هنا على سبيل صيانة الاهتمام أن يبذل في غير محله، وعلى سبيل التهوين والاحتقار لمن هذا مبلغ علمه ومنتهى عقله ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى﴾.

